عبيد العصا

ذهب ربيعة إلى حجر يحمل إليه عينين فى طبق صغير وهو ظاهر الاضطراب، فنظر حجر إلى العينين نظرةَ عَجْلى، ثم أطرق واربدَّ وجهه؛ وبدا عليه ما ينم عن صراع بين كبريائه وعاطفته. وأدرك ربيعة أن الرجل قد ندم على أمره بقتل ولده ونزع عينيه؛ وحمد إلهه «الأقيصر» على أن ألهمه ألا يقتل الفتى، وأوقع الرحمة فى قلبه فأخفاه فى بيت فى واد بعيد، بعد أن جعل فى يديه ورجليه الأصفاد والقيود، وأقام حوله من بنيه وبنى إخوته حراسًا يحرسونه حتى لا يهرب، أو يعرف بعض أصحابه مكانه فيحملوه ويهربوا به. ولما رأى ربيعة أثر الرقة فى وجه مليكه تجرأ وقال له: «أبيت اللعن، هل بك وجد علىّ من قتل الأمير؟».

فلم يلتفت إليه حجر، بل أخذ الطبق وجعل ينظر إلى العينين اللتين وضعتا فيه، وتنفَّس نفسًا عميقًا، وجالت فى عينيه دمعة حاول أن يخفيها عن جليسه.

فتأكد ربيعة أن الرجل قد ندم على أمره، وأنه موشك أن يوقع به على التسرع فى قتل ولده، فقال مبادرًا: «أيسرك أنى لم أكن قتلته».

فرفع حجر إليه رأسه محنقًا، وكاد يرميه بكلمة غاضبة، لولا أن رآه يبسم وهو ناظر إليه، فتردد وداخله الشك فى أمره، وقال بعد لحظة وفى صوته تلهف: «أوَ لم تفعل بعد يا ربيعة؟».

فقال ربيعة متظاهرًا بالاعتذار: «عفوك يا سيدى، فإن أمر الغاضب فيه قسوة، وقد علمت أنك قد تعود إلى نفسك فتعذلها حين لا ينفع الندم، ولهذا آثرت أن أجرؤ على عصيانك، والأمر بعد فى متناول يدك، فالفتى فى قيوده عند وادى «المقراة» وحوله حراس لا يفلت منهم حيًّا».

فأطرق الرجل، وقد بدا عليه الارتياح، وتنفس كمن انزاح عن كاهله عبء ثقيل، ثم رفع رأسه بعد حين وقال: «أحسنت يا ربيعة، فديتك بالأكرمين!».

ثم قام ووضع يده على كتفه، مظهرًا له شكره، وقال له: «ولكن بقاءه بين ظهرانينا بعد اليوم مفسدة لأمورنا».

فأسرع ربيعة مجيبًا: «له فى بلاد أعمامه مندوحة».

فكأن هذا القول فتح لحجر بابًا مغلقًا. فالتفت مسرعًا إلى ربيعة وقال له: «جهزه اليوم، فلا أرينّه مقيمًا فى بنى أسد بعد هذا».

وانصرف ربيعة مسرعًا لينفذ أمر مولاه، فما جاء الليل حتى كانت الإبل التى تحمل امرأ القيس مع جمع من أتباعه وعبيده تضرب فى كبد الصحراء، ميممة شطر المشرق إلى بلاد عمه الملك سَلمة بن الحارث، الذى كان يحكم قبائل قيس عيلان بن مضر فى شرق نجد.

كانت شواغل حجر لا تترك له فراغًا للتفكير فى أمر ولده، وكانت الحوادث تتوالى سراعًا، لا يخلو يوم بغير حدث جليل

منهـا؛ فكان كل همه أن يحتـال فى تصريف ما يعرض من أموره، وتلافـى ما يتوقع من مخاوفه؛ فمضى عليه بعد سـفر امرئ القيس عـام بعد عام وهو لا يكاد يجد فراغًـا من وقته لتذكر ابنه النازح، أو لمعرفـة أخباره. ولم تكن لابنه أخبار مما يجرؤ أحد أن يحملها إليـه. فقـد ترددت أنباء سـيرته فى أركان بلاد العـرب أنه أمير خليـع، لا يبقى طويلا فى منزل، ولا يسـتقر فى جوار أهل. كلما حـل فى قوم من قرابته أحـدث فيهم حدثًا، فبرموا به وبرم بهم؛ فلم يبق معهم، وانصرف عنهم يلتمس أرضًا أخرى لعله يجد فيها إشباع نفسه ورى قلبه المتأجج، حتى انتهى أمره إلى أن صار خليل ذؤبان العرب وصفى صعاليكهـم يتنقلون معًا بين العيون والرياض لا يأكلون إلا من الصيد، ولا يقضون دهرهم إلا فى القصف وشـرب الخمر، ولا يتسلون إلا بمصاحبة القيان فى مجالس صاخبة، طربها من غناء المزاهر، وسمرها من نشـيد أشـعار امرئ القيس. لم تكن تلـك الأخبار تبلغ حجرًا، بل كانت تقف عند بابه يتلقفها أعداؤه فيتخذونها وسيلة للحط من شأنه والتحريض عليه وهو جاهل بها مشغول عنها.

وكان الاضطـراب عند ذلك يشـمل أنحاء نجـد وأكناف العراق بعـد أن مات العاهل العظيم قباذ، واهتزت فارس لموته هزة عنيفة انتقلت إلى كل ما يليها من صحارى بلاد العرب؛ فقد كان قباذ ملكًا ثائرًا جريئًا قلب العادات، وعصف بالعقائد الموروثة، وأعلى سفلة

من قومه وأذل عِلْية. وكان من آثار جرأته أن نقل زعامة العرب من البيت القديم الذى عاشر بيت أجداده أبًا بعد جد، وكان ساعدهم الأيمن فى الدفاع عن حدود فارس وحمايتها من غارات قبائل العرب، ذلك البيت الذى لا تخلو قصة عربية من ترديد أسماء ملوكه وأمرائه، بيت بنى نصر اللخمى، بيت النعمان والمنذر الذى انعقد له لواء القبائل من قحطان وإياد وأنمار. نقل قباذ الزعامة من ذلك البيت العريق، فطرد الملك الكبير المنذر بن ماء السماء من مقر دولته بالحيرة، وجعل فى مكانه سليل بيت آخر ينافسه، بيت آكل المرار الكندى اليمنى؛ فاختار الأمير الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ملك نجد، وعقد عليه تاج الحيرة.

وامتد سلطان الحارث الكندى فشمل العراق وبلاد نجد جميعًا، ووزع أبناءه على قبائل نزار يحكمونها؛ فكان نصيب ابنه حجر بن الحارث حكم قبائل بنى أسد، وقبائل غطفان، وكان نصيب أبنائه الآخرين حكم ما بقى من قبائل كنانة وربيعة وأنمار وإياد.

فلما مات قباذ، هُدَّ بموته الركن القوى الذى كان دعامة ملك الحارث وبنيه، وأخذت الثورة الكامنة فى قلوب منافسى بيت الكندى تسرى وتضطرم فى الخفاء، يندلع منها بين حين وآخر لسان من اللهيب ينذر دولة الحارث الكندى بالنضال المقبل العنيف.

وتولى ملك فارس بعد قباذ الملك العظيم خسرو الأول، (أنوشروان). وكان أول همه بعد توليه ملك آبائه أن يعيد إلى دولته ما اختل من نظامها، وأن يرد أمورها إلى ما كانت عليه قبل أيام أبيه. وكان (أنوشروان) داهية لا يجارَى فى دهائه، وشديدًا لا يبارى فى نضاله، فدسَّ الدسائس، وجرد الكتائب، وبعث الرسل، منّى وأهدى، وتلطف وتوعد، وأوقع وفتك، فإذا الدولة العظيمة تهتز كما يهتز البناء الشامخ فى الزلزال الهائل؛ وإذا بالحارث بن عمرو الكندى يحس بعرشه يرتج من تحته رجة بعد رجة وهو يحاول التماسك فلا يستطيع.

وكانت الأخبار المزعجة ترد إلى حجر بن الحارث وهو مقيم فى غربى أرض نجد بين بنى أسد، تنبئه بحرج موقف أبيه وما يحيط به من المتاعب، وتحمل إليه أنباء الثورات التى اندلعت فى القبائل التى يحكمها إخوته فى الأركان الأخرى من وديان نجد وفيافى اليمامة.

وحشد أبناء الحارث كل ما استطاعوا حشده من قبائل العرب لنصرة أبيهم الذى يستظلون فى الحكم بجاهه، وبذل حجر فى نصرة أبيه كل ما فى يده من أموال وقوة، لأنه شعر كما شعر إخوته أن زوال ملك أبيهم عن الحيرة يقوض أركان ملكهم المزعزع الذى لم يكن له دعامة غير القوة والرهبة والجبروت.

بعد هذه الأعوام كان حجر يجلس يومًا فى خيمة فسيحة فى أقصى أرض من بلاده، وقد ذهب إليها ليشرف على جمع الأموال

من بعض القبائل البعيدة، فإن السنين الغابرة علمته أن تلك القبائل تقاوم جباتـه وتعصى أوامره، وتمانع فى دفـع الأموال إلى أتباعه وعمالـه؛ فكان كلما أراد جباية المال من قبيلة ذهب إليها بنفسـه لكى يشعرها قوة جنوده ورهبة سلطانه، فتبذل كارهة ما لا يستطاع أخذه منها عن رضى.

ودخـل عليه ربيعة بن عمرو صاحب سـره وهـو جاهم الوجه مـتردد الخطى. فرفع حجر بصره إليـه وأدرك من منظره أنه قادم بخبر مشـئوم. فقد كان ربيعة وحده يجـرؤ أن يحمل إليه الأنباء الصادقة. فقال حجر بعد أن أجلسـه إلى جـواره «لعل هؤلاء القوم قد صنعوا ما صنع سواهم من الوثوب والعصيان. لا يحزنك ذلك فإنا نقدر على أن ننزع منهم بالقسر ما لا يرضون ببذله طائعين».

فرفـع ربيعة رأسـه ببطء وقـال بصوت ضعيـف: «ليس ذلك ما جئت له».

فصمت حجر لحظة وقد أدرك أن فى الأمر خطورة غير ما حسب، ثم قال متكلفًا الهدوء: «فهل من جديد؟».

فأطرق الرجل برأسه مترددًا ثم قال: « الحارث بن عمرو، أبوك الملك الحارث».

فوثب حجر من مجلسه وقال فى ذعر «هل قتل؟».

فأسـرع ربيعـة مجيبًـا: « لا. لم يقتـل، ولكنه هـزم وأخرج من الحيرة».

فتنفس حجر وعاد إلى مجلسه مضطربًا وقال: «هل جاء بذلك رسول؟».

فقال ربيعة: «لا. ولكن سمعت ذلك من صديق كان فى الحيرة منذ حين. وقد حمل النبأ إلى هنا إذ عرف أننا بعيدون عن منازلنا».

فقال حجر متلهفًا: «وهل سمع الناس النبأ؟».

قال ربيعة: «لا. فإن عيوننا المنبثين بين القبائل لم يحملوا إلىَّ أن أحدًا يتحدث بهذا الخبر».

فسكت حجر لحظة أخرى كأنه قد سُرِّى عنه ثم قال: «لا بد لنا من العودة إذًا».

فهزَّ ربيعة رأسه مصدقًا وقال: «إذا شئت اليوم، لأننى لا آمن بنى أسد فى غيبتنا وفيهم ذلك الثعبان الأسود عبيد بن الأبرص».

فصرَّ حجر بأسنانه غيظًا، وقال « فاليوم نرحل عائدين».

وخرج ربيعة ليأمر بالاستعداد للسفر، وليحاول التماس الأسباب التى يذيعها بين الناس تبريرًا لذلك الرحيل السريع.

وبعد يومين من سير مجهد كادت الإبل تنقطع فيه بلغ حجر منازله فى ديار بنى أسد.

كانت عودة حجر فى جنوده وأعوانه غير منتظرة، فقد كان بنو أسد يظنون أنه يقضى زمنًا طويلا فى جباية الأموال من غطفان ومن بطون بنى أسد البعيدة عند حدود تهامة، وكانوا فوق ذلك يتوقعون أنه يجد هناك من المقاومة والعصيان مثل ما كان يجد فى

تلك الأعوام فى كل أنحاء ملكه. فلما عاد حجر إليهم سريعًا أخذتهم عودته على غرة، لأنهم كانوا يعدون العدة لثورة عارمة يزيلون بها عن كاهلهم ظلم ذلك الرجل العنيف الذى ثقلت وطأته عليهم.

كان شيوخ بنى أسد عند ذلك مجتمعين فى ناديهم فى ليلة مظلمة من ليالى الصيف الحارة، وقد أوقفوا من حولهم حراسًا خوف أن يندس بينهم أحد من أتباع حجر، وجعلوا يتشاورون فيما هم فاعلون للوثوب والثورة قبل أن يعود إليهم ملكهم فى جيشه الفاتك. وكان معهم رجلان غريبان جاءا إليهم منذ يوم من الحيرة يحملان إليهم أنباء حوادثها الخطيرة، ونزلا ضيفين على رئيسهم عمرو بن مسعود.

وفيما هم جلوس يتشاورون فى أمرهم أقبل عليهم رجل مسرعًا فمنعه الحراس وجعلوا يشاحنونه حتى علت أصواتهم، فقام عمرو بن مسعود ليعرف سر الضجة، ثم عاد بعد لحظة إلى أصحابه وهو صامت مهموم، فجلس مليًا وعيون القوم ناظرة إليه، ثم قال لهم فى صوت ضعيف «لقد عاد حجر».

فأجابته أصوات فيها شىء من الذعر: «عاد حجر؟ متى؟».

فأجاب ابن مسعود: « عاد الساعة بعد أن قتل رواحله من السير الحثيث».

فقال أحد الرجلين الغريبين: «إذًا لقد بلغه النبأ».

فأجاب ابن مسعود مطرقًا: «لا ريب فى ذلك، وكأنى بكم ترجعون عما كنتم عازمين عليه».

فصاح رجل من الجلوس: «لا نرجع عن عزمنا وحق مناة!».

وكان ذلك الصائح شاعر بنى أسد عبيد الأبرص.

فسكت القوم حينًا، ثم عاد ابن مسعود إلى الكلام، فقال يخاطب الرجل: «ولكنا لا نستطيع يا عبيد».

فصاح عبيد غاضبًا: «إننا لن نجد بعد اليوم فرصة أخرى...».

وأراد أن يمضى فى قوله، فقاطعه شيخ من الجلوس قائلا: «خفض صوتك يا عبيد... فلست اليوم تنشد شعرًا».

ثم قام الشيخ فقال: « لقد علمتم أننا لا نقدر على حجر بغير نجدة من العرب، فإنه فى جنوده كندة وأعوان من كنانة ومن قيس، وأنتم تعرفون ما بيننا وبين بكر وتغلب من العداوة، فلن نجد منهم نصيرًا عليه. ولسنا نتوقع أن تأتينا نجدة من المنذر قبل شهر من اليوم، فهذا ما أنبأنا به ضيفانا الكريمان. فأولى لنا أن ننتظر فرصة أخرى. فإن الإقدام على ما لا قبل لنا به يفسد علينا خطتنا ويبعد عنا قصدنا».

فسكت القوم ينتظرون جواب ابن مسعود على ما قاله الشيخ الحارث الكاهلى وتحرك عبيد فى مكانه ضجرًا، ولكنه لم يقل كلمة.

وبعد حين قال ابن مسعود: « الحق ما قاله أبو غالب فأولى بنا اليوم أن نصبر حتى...».

ولم يتم الرجل قوله إذ علا صوت ضحكة سخرية من أحد الجلوس، فالتفت الجمع كله إلى صاحبها، وقال ابن مسعود وفى صوته ألم وإنكار: «مم تسخر يا عبيد؟».

فقال عبيد وكان هو الضاحك الساخر: «أعجب لكم إذ تقولون نصبر وننتظر. أنسيتم أنكم قد بدأتم الوثوب بصاحبكم؟ أنسيتم أنكم قد عصيتم أمره في غيبته وضربتم جباته وأسلتم دماء رسله؟ أتظنون حجرًا يغفر لكم ذلك ولا يعاقبكم عليه؟ لكأني به الآن قد عرف ما أحدثتم، وكأني برسله الساعة تسعى في آثاركم وتشتد في طلبكم».

وما كاد عبيد يتم قوله حتى سمعت ضجة مقبلة من حوافر خيل وقعقعة سلاح وأصوات مختلطة حانقة. فقام الجمع فزعين، وما كادوا يتبينون مبعث الضجة حتى أحاطت بهم جماعة في سيوف مشهورة، وتقدم رئيسهم قائلا: «لا يتحركن أحدكم من مكانه».

وما هي إلا لحظات حتى كان شيوخ أسد يسيرون في قيودهم، يساقون والجنود تدفعهم من ورائهم دفعًا عنيفًا، حتى قذفوا بهم في خيام السجن وجعلوا عليها حراسًا من كندة يحيطون بها.

وقضى شيوخ بني أسد تلك الليلة مع ضيفيهم الوافدين عليهم من الحيرة في سجنهم يذوقون صنوف العذاب من ضرب بالعصا ووخز بالرماح ووطء بالأقدام. وكان الجنود لا يخاطبونهم إلا بالسب والوعيد ولا يسمونهم إلا «عبيد العصا»، وهم يهوون عليهم بالضربات الموجعة ولا يبالون أين تصيب منهم.

فما أتى الصباح حتى كانوا بين قتيل من أثر الضرب العنيف وجريح مما أصابه من وخز السلاح. وكان الشيخ الحارث الكاهلي من قتلى تلك الليلة.

كان حجـر فـى خيمته فى ذلـك الصباح لا يسـتقر فى مجلس بـل يذرع القبة الفسـيحة ذهابًا وجيئة وهو مطـرق مهموم. وكان وهو يخطو خطواته الواسـعة السـريعة يتكفأ كأنه ينحط من عل، ويزيد به الغضب أحيانًا فيفوه بلفظ حانق ثم يعود إلى نفسه فيمسك ويستمر فى سيره مطرقًا.

واكتسـى وجهه بلون قاتم من أثر الغضب، تزيده سـوادًا لحية سـوداء كثة تحيط به، تتخللها خيوط من الشـيب، وتبدو شـعثاء كأنها معرفة الأسـد. وظهرت لمعـة مخيفة فى عينيه المحمرتين، فإذا اتجه بهما إلى شـخص برّق فيه لا يطـرف كأنه يهم بالوثوب عليه. وكانت رعشة خفيفة تعترى شعر شاربه وهو بين حين وآخر يجذبـه بعنف ثم يرسـله فى اضطراب. ودخـل عليه الخيمة وهو علـى هذه الحال ربيعة بن عمرو فى عمامـة خفيفة بيضاء وثوبين مخططـين قد ائتزر بأحدهما واشـتمل بالآخر، فوقف حجر ونظر إليه وقال بلفظ سريعٍ خاطف: «هل تحمَّلوا؟».

فقال ربيعة هادئًا: «نعم... وجئت مستأذنًا فى تسييرهم».

فقال حجر فى غيظ: «وتركت حراسًا عند عمرو بن مسعود؟».

قال ربيعة: «تركت حوله حراسًا لا يوصل إليه من دونهم».

فقال حجر: «وذلك الثعبان عبيد؟».

قـال ربيعة: «لسـت أعبأ بـه. لكأنى به قائم عنـك بعد حين يتذلل ويتمرغ».

فصرّ حجر بأسنانه، وعاد إلى سيره السريع يخبط الأرض بقدميه ثائرًا، وقال من بين أسنانه: «لا رأيته إلا مضرجًا فى دمائه».

ثم قال كأنه يخاطب نفسه: «لوددت أنهم جميعًا لحقوا بالحارث الكاهلى، فلم يبق منهم باق منذ هذه الليلة. لم يشف قلبى من هؤلاء... إنهم لا يزالون يسيرون على هذه الأرض وهم أحياء».

ثم التفت فجأة إلى ربيعة وقال: «أما قلت إن الحارث الكاهلى قد مات؟».

فوجد ربيعة فرصة للقول فأجاب: «لم يكن الحارث شرهم. فقد علمت أنه كان يردهم عن الوثوب وينصحهم بلزوم الطاعة».

فقال حجر وهو يضحك ضحكة مرة: «يردهم عن الوثوب؟ إنما كان يستأنى بهم ريثما يتم لهم الاستعداد».

فصمت ربيعة، وقد أدرك أن حجرًا أصاب الحق فى قوله، واستمر حجر بعد حين فقال: «لقد بدا لى أن ألجمهم السيف جميعًا فلا أدعهم يسيرون عنى وهم أحياء. فوحق يغوث ويعوق وكل أنصاب العرب ما لهؤلاء أمان بعد اليوم».

فقال ربيعة متطلفًا: «لو آخذ الملوك قومهم على مثل هذا لما بقيت لهم رعية. وليت شعرى ماذا أنت صانع غدًا بغيرهم إذا فعل فعلتهم؟ فليست غطفان بأهدأ منهم نفوسًا».

فنظر حجر إليه نظرة مخيفة ثم قال: «لكأنى بك تهددنى بقومك؟».

فقال ربيعة هادئًا: «لقد عرفت - أبيت اللعن - مبلغ وفائى لك وحرصى على تدعيم ملكك، فلست بالذى يهددك بقومه، ولن يكون من قومى إلا ما تحب ما بقيت فيهم، ولكنى أضرب لك الأمثال لعلى أبلغ من نصحيتى ما أود».

فمضى حجر فى سيره، ثم وقف بعد قليل ونظر إلى ربيعة وقد خبا بعض هياجه وقال: «إذًا فليسيروا اليوم عنى لا أراهم فى صباح ولا مساء، هؤلاء عبيد العصا».

فلم يعاود ربيعة الكلام فى أمرهم، واكتفى بأن استأذن فى الخروج لتشييع القوم والتثبت من كفاية حراستهم فى مسيرهم.

وما هى إلا ساعة حتى كان شيوخ بنى أسد وزهرة شبابهم يسيرون فى قافلة عظيمة تسرع بهم إلى منفاهم الذى أمر الملك حجر أن ينفوا إليه فى صحارى تهامة.

* * *